

تاريخ آل معن

(تابع ما قبله)

وعلم الامير نجر الدين ان الاسطول العثماني قادم عليه بقيادة محمد باشا وان اميره انقذ الى صيدا عشرة سفائن بامرة يحيى باشا ليرصد طريق البحر فلا يقر الامير بجرأاً فللحال نهض الى نهر صيدا واجتمع يحيى باشا وشكا اليه من تجامل الحافظ عليه مع انه عرض عليه^(١) واحداً وخمسين الف ذهب سلفاً عن السنة التالية. ثم ان الامير قدم للباشا هدية واستكتب اهل صيدا عريضة وارسلها مع رجلين من اخصائه لمحمد باشا امير البحر فلما وصل الوفد الى الباشا سر بذلك وامن الامير والوفد وبعد ايام اقلعت السفن العثمانية من ميناء صيدا وقدم مركبان فرنساويان ومركب هولاندي

وكان الامير في خلال ولايته علي بيروت قد تعرّف بالبنادقة الذين كانوا يتتابونها للتجارة في الاحابن وشرع يرسل حكومتهم عن يدهم وكانت هذه الحكومة من اعداء الدولة العلية الا في تلك الاونة فانه كان بين الدولتين هدنة وتواد ومن الغريب ان يقع في ابانها مثل هذه المغابرات على ان نجر الدين بنى من الالماني صروحاً عالية حاسياً ان المساعدات الاجنبية تنيله رغائب نفسه ولذلك لما رأى الجيوش السلطانية زاحفة عليه وانس من انصاره القعود عن نجدته عزم على السفر الى اوربا اما فراراً من العسكر واما التماساً للنجدة الموعودة وكان الحاج كيوان الماروني قد اشار عليه بالسفر فأبى ولكنه لما استأذنه بسفر نائه وامتعته واذن له استأجر احد المركبين الفرنسيين الموجودين في صيدا واتزلهن فيو ثم ارتضى الامير بالسفر بعد اذ استقدم اخاه الامير يونس الى الدامر وكذلك الاميرين منذراً وناصر الدين التنوخيين ومشاخ البلاد وآل الخازن وغيرهم من الوجوه واستنهضهم لنصرتهم فابوا جميعاً فرأى انه مخذول ولا امل له بنصرة حلفائه فعاد حيثئذ الى صيدا وعهد بالامارة الى اخيه الامير يونس على ان يقيم في ذير القمير فخرج اليها برجاله واخصاء اخيه وسكائه. ولكن قولناي ولا مرتين يقولان انه استتاب ابنه علياً ولا نرى لذلك سندا لان علياً كان يومئذ في حوران. ولما تمت اهبة الامير استأجر المركب الفرنسي الاخر والمركب الهولاندي كلاهما بخمسة آلاف ذهب ونزل باحدى نسائه وبماليكته وثمانه البالغين خمسين نقراً ونزل الحاج كيوان في المركب الاخر فلما

(١) وفي رواية الخالدي الصندي ان هذا القدر من المال كان للامير على خزينة الشام لانه كان قد

علم الريان المولاندي بان اجرة المركب الفرنسي كاجرة مركبو طلب مضاعفة الاجر فاداهما
الامير ثم طلب خمسة الاف اخرى كان الامير قد اخذها منه جريمة قبيحة^(٢) ولم يبق مع
الامير حين سفره الا خمسة وعشرون الفا ذهباً ثم اقلعت السفن من صيداء وقيل ان الامير
سافر من بيروت

ويبلغ الامير ايطاليا ونزل برّها واختلف الرواة في اسم الموضع فمن قائل انه نزل في فلورنسا
ومن مخبر انه في توسكانا وروى غيرها في ليكورن بحيث لو اطلع غير الخبير على هذه الروايات
في مصادرها لاحرار ولم يدري ايها يعتمد والحق ان نغر الدين كان على صلة مع آل مديسي
Medici امراء فلورنسا وكان هؤلاء قد اتسع في تلك الاونة نطاق امارتهم فعم كل بلاد
توسكانا وفازوا بصداقة البابا بيوس الخامس على ثقتهم بكران دوك توسكانا فاتخذ احد
فرديندو الاول ليكورن مرفأ للسفن المتجرة مع الشرق فما عثمت المدينة ان كبرت وازدهرت.
فالاقوال المتضاربة ظاهراً صحيحة والمرجح ان نغر الدين نزل البر في ليكورن ولكنه اقام في
بيزا المنضعة الى تلك الامارة وذلك بامر الكران دوك والكران دوك هذا هو كوزمو الثاني (الذي
حكم من سنة ١٦٠٩ الى سنة ١٦٢١) وقد رحب بالامير وكذلك رحبت به امه وأخيه له
فصر نصح وأجريت له الرواتب الباقية نحو التي سكوت في السنة ثم ارسل الكران دوك بعضاً
من عظامه البلاد ليطون عليه ويستخبرونه عن شؤونه فالحوا عليه بالسؤال كثيراً ولكنه
تخفظ منهم واجابهم مقتضياً فما سأله عن عدد العسكر الذي يستطيع ان يجدهم به اذا قصدوا
بلاده فاجابهم انه يومئذ بين ايديهم ولا يستطيع جواباً فقالوا اذا لم يكن ممكناً لاهل لبنان
ان يجدهم فهل يبعونهم زاداً فقال لهم انكم عارفون بقوة المسلمين وحول العثمانيين فان كنتم
قادرين على غلبة قواتهم فانتم في غنى عن الاعتماد على معونة الغرباء في تمويحكم فسأله كم من
العسكر يجتمع تحت لوائك في بلادك فقال لما كنت والياً على لبنان كنت احشد عشرين الفا
غير الذين يقيمون في بلادهم اما الان فاني لسوء الحظ لا احكم الا على نفسي

فات اذا سعت هذه الرواية فانها تدل على ابا نغر الدين ان يكون آلة في ايدي
الاجانب يسعى لهم في غرضهم وصحتها تناقض الرواية القائلة بما سبق له من مخبرتهم للاعتقاد
بهم لانه لو كانت نفسه تهدته بمثل هاتيك المطامع لما ابى الانتفاع بها حين صارت وشيكة
الوقوع فكان سفره الى هاتيك الديار لم يكن الا فراراً من العسكر السلطاني وبطشه وانما
اقتجأ الى القوم الذين كان يحسن الى تجارهم المقيمين في بلاده بالحماية والعهد وليس غريباً ان

(٢) وفي رواية الخالدي ان المال كان قد اخط خطأ من التصل المسمى كروانا

يسعى القوم في استنصاره على الدولة لما هو معروف من عدائهم لها ولذلك يحكى انه لم يمض
الا بضعة ايام على محادثته حتى نقصّ ظلّ الترحاب به وقلت كبة المال المرتب له حتى اصبح
محتاجاً الى رهن مجوهرات امرأته للاتفاق على بيته مع انه اقام في بيضا يعيش عيشة بسيطة
خالية من الترف لكنّه لم يكن مهملًا ومع ذلك فقد تولاه الملل والخجر لاسيما وقد انقطعت
صلاته مع الكران دوك او كادت

اما تاريخ هذه الرحلة ففيه خلاف بين الكتبة لكن المرجح وقوعها سنة ١٦١٢ لان ذلك
قول جلة من العلماء الاعلام كالبطريك الدويهي والمطران يوسف الدبس والمرحوم البستاني
واحتدام صاحب تاريخ كسروان وانما خالفهم الخالدي الصفدي واخبار الاعيان والمسبو
دريس صاحب التاريخ العام (Dreyes; Chronologie Universelle) فانهم ارخوا
ذلك سنة ١٦١٣ واما الكولونل تشرشل فقد ارخه في ٢٥ اكتوبر (١٦) سنة ١٦١٤ فتأمل
ولما ذاع خبر وصول الامير الى اوربا استلفت الانظار اليه واسترعى السماع لكلامه
وشرع الناس يتسألون عن شأنه وعن وطنه وامته ومنشئها وانبرى الباحثون لذلك يتقبون عن
الوقائع التاريخية والاشخاص ولا يهتدون وتراهم يخطون خط عشواء في اعتبار الدرزية من
الفرق الاسلامية والنصرانية فما قالوه انهم بقية شرذمة من الصليبيين حاسبين ان اولئك
التجأوا الى الجبال العصم وانهم ظلوا محابة ايامهم يكدون احجاب البلاد فكان هذا القول على
غنى مقبولاً لدى نجر الدين ليقى له ما فاز به من الثقات الانبيج واحتقائهم به وما علق به
امله من النصرة السياسية فادعى انه من سلالة آل لورين وساعده الحظ ان بعضاً من الذين
تهمم الرسائل الدينية او التجارية في سورية صدقوا مدعاه ليفوزوا منه باستمرار حمايته
وعنايته بهم اذا عاد الى وطنه حاكماً وتمادوا فشرعوا يقيمون الادلة على صحة قولهم حتى قال
قوم منهم ان كلمة دروز مشتقة من دري Dreu وهو اسم احد امراء الصليبيين زاعمين
ان جماعة من الصليبيين الفرنسيين تجت امرة الكونت دري نزلوا تلك البلاد فنسبت الجماعة
لزعيمها وعرفت به. ثم ان صاحب اخبار الاعيان بحسب المعنيين من المسلمين وكذلك يجسبهم
الكولونل تشرشل في كتابه تاريخ لبنان وتاريخ الموارنة والدروز علي ان معظم المؤرخين
الذين قرأنا مؤلفاتهم عنهم يحسبونهم من الدروز وقد صرح بذلك المحي والموادي والبستاني
الا ان المحي يقول في صدر ترجمة نجر الدين ان بعضاً من حفده قال له ان نجر الدين كان
يقول ان اصل آبائنا من الاكراد سكنوا هذه البلاد فاطلق عليهم الدروز باعتبار المجاورة لا
انهم منهم قال وهذا ايضا غير ثابت الخ. قلت لو صح عند المسلمين السنين ان بني من كانوا

منهم لما تبرأ الامير حسين بن نضر الدين من الدرزية حيث لبث في الاستانة بعد مقتل ابيه
كما روى المرادي في ترجمته

واما قول حفيد نضر الدين المحيي ان اصلهم من الاكراد ففيه نظر لان القوم كانوا
يتفخرون بنسبهم العربي وانهم من بني ربيعة ناهيك ان شاعراً معاصراً لنضر الدين اسمه محمد
الطالوي كان قد مر على صيداء ومدح الامير ثم اخذ الامير مملوك الشاعر فكتب ذلك الى
والي دمشق شريف باشا قصيدة يشكو فيها ويتظلم من فعلة الامير وفي القصيدة هذا البيت
ماذا لقي في نضر صيدا من دروزي غوي

ثم ان سفر نضر الدين الى اوربا لم يطفى جرة الحرب بل عاد ابنة من حوران لنجدة
بلاد لان احمد بك احط على قلعة شقيف ارنون وحصرها طويلاً وكانت الجحيدات لتوارد
على عسكريه من انحاء البلاد حتى حصروا بلاد الامير يونس المعني فاشار عليه قومه ان يرسل
امه الى الباشا في طلب الامان والتسليم فارسلها وصحبها بخمسة وعشرين الف غرش واربعة
من الخيول العرب هدية وبعت معها ثلاثين رجلاً من عطاء البلاد وفي غضون ذلك
علم بمراسلات سكاكيد والباشا فخرج من دير القمر وكان حين باشا سيفاً مرابطاً في الدامور
فلما علم بخروج الامير وعسكريه من دير القمر قصدتها ليحرقها الا ان ام الامير كانت قد بلغت
نخيم الوزير وقدمت له الخيول والمال فرحب بها واجاب ملتصماً بان عفا عن ابنها وخلع
عليها ولكنه اشترط ان يؤدي له مئة الف قرش نصفها فداء عن حرق الثوب والنصف
الآخر لكف القتال وابقاء القلاع فارتضت بذلك وظلت عنده رهينة فامر بالانكفاء عن
الحرب واطلق الامان لآل معن وارسل بعض اخصائه يبشر الامير يونس بما حاز من العفو
وان يسعى بتدبير المال

والظاهر من رواية العلامة الدويعي ان سجيء ام الامير للخطابة بالصلح كان يطلب الباشا
اجابةً لالتماس الامير يونس لانه رأى البلاد اصححت عرضةً للحرق والسلب الا ان المحيي
يقول انه انما ارتضى بنزولها اليه لما علم ان نضر الدين قد سافر الى اوربا وانها لما مثلت لديه
قالت له نحن ما ضبطنا بلداً بغير اذن السلطان ولا انكسر عندنا مال وانها اعطته مئة الف
للطان وخمسين الفاً للوزير ومثلها له

ولما وقع الصلح عاد الباشا الى دمشق والرهائن معه وما لبث الامير يونس ان بر بوعده
وجمع المال المطلوب وارسله الى الباشا صحبة الشيخ احمد العكس من دروز حفة حلب فدفع
الرسول ثمانين الفاً وهرب من الشام بالعشرين الفاً الباقية فطلبها الباشا من الامير فاعتذر

عن ادائها ثانية بما كان من فعلة ابن العكس فلم يرض بذلك بل ركب للقتال وسار حتى قب الياس فارسل الامير اليه مبعوثاً واعذ عن الباقي فابي الباشا الامهال وتوافدت اليه العساكر ومن جملتهم الامير احمد الشهابي مع ان الباشا كان قد نكبه بعشرة آلاف غرض فسر به ووعده بولاية حاصبيا وسائر وادي التيم فلما علم اخوه الامير علي بذلك جمع رجاله وانضم الى عسكر الامير يونس وارسل ابنه بشرذمة من الرجال لتجدة الامير علي بن نجر الدين في قلعة باناس اما الباشا فارسل الشيخ مظفر ابرجال من اتباعه الى الباروك فلقبهم المعينون وحاربهم فكسروهم وردوهم على الاعقاب خائبين واقام الامير يونس في الباروك متوقفاً هجوم الباشا عليه بكل قوته الا ان الباشا كان قد دس لاهل الشوف الخروج عن ولاء الامير والاتجاه اليه فيلقون خيراً فاجابه بعضهم الى ما اراد تخاف الامير يونس من عقبة الانحراف عنه وذهب من الباروك الى باناس وقدم الباشا فدخل دير القمر واشحن فيها قتلاً ونهباً واحرق منازل المعينين وارسل الشيخ مظفر الى عبيد فامر الامير ناصر الدين التنوخي وجاء به الى الباشا فآكرمه وولاه الشوف واما المعينون فاحتشدوا في مرج سري وجاءهم عسكر الباشا ولما اتفموا انكسر جيش الباشا فارسل المعينون يشرون الامير يونساً بظفرهم ويطلبون ممدداً وكذلك بعث الباشا يستقدم حسين باشا سيفاً من الدامور فجاء ووقع المصاف وكانت عدة رجال الشوف اربعمائة واما عسكر الباشا فعشرون الفا فانكسر الشوفيون وولوا الادبار وفي طريقهم التقوا بجمدة اميرهم فعاد بهم الى باناس وانصرف الامير علي الى بلادهم وتشتت اهل الشوف في وادي التيم وخلا الجوليش الباشا فشرع يبعث في الشوف فساداً من قتل وسلب وحرق ثم فصد قلعة شقيف نبرون فلم يقو عليها فتركها وعاد الى دمشق وفي طريقه اليها اتم خراب البلاد . ولقد ذكر الامة الدويهي ان سبب رجوع الباشا عن تتبع نصره ما علمه من مقتل الصدر الاعظم نصوح باشا تخاف وشرح العرب ونكص راجعاً ولا نعلم موضع هذا السبب من الصحة لان هذه الحرب وقعت سنة ١٦١٢ ولم يكن امدها طويلاً ليتجاوز الدنة والمهمود ان مقتل نصوح باشا كان في ١٢ او ١٣ رمضان سنة ١٠٢٣ هـ المعادلة سنة ١٦١٤ على ما يستفاد من المحيي ومن تاريخ تركيا لجوانين وفان كافر

ولما رجع احمد باشا الى دمشق عاد الامير يونس الى دير القمر واقام فيها لانه كان قد اتخذها مركزاً للولاية منذ فوض اليه اخوه الامارة فانتقل من بعقلين اليها ولما عزل احمد باشا الحافظ سنة ١٦١٣ عن الشام وعين محمد باشا جركس ارسل مستسلاً وامره ان يتادي بالامان ويرد جميع النازحين فضمن بلاد الشوف للشيخ يوسف السلفاني من

اعوان بني من فارسل اليه الامير يونس الشيخ ابا نادر الخازن والشيخ ابا ظاهر حبيش ليسعفاه في عد الاشجار واستيفاء المال ولما وصل محمد باشا الى حلب اطلق سراح ام الامير نغور الدين ومن معها من الرهائن التي ابقاها احمد باشا عنده حين مصاحته الاولى وعفا محمد باشا عن الامير نغور الدين وامنّه ليعود الى بلاده فارسل الامير يونس كتاب الامان الى اخيه وكان نغور الدين احب الوقوف على شؤون بلاده فارسل رسلاً اليها مع جماعة من سياج الافرنج فوصلت الرسل ونزلوا ضيوفاً على اخيه الامير يونس في دير القمر ثم تفقدوا القلاع وعادوا بالجواب من الامير يونس ومعهم الشيخ خاطر الخازن وخمسون رجلاً من الشوف وبينما كان في بيزا زاره قنصل فرنسا وقدم له رسالة من الملك لويس الثالث عشر يدعوه بها الى بلاطه ويعرض عليه التوسط له لدى السلطان ليعفو عنه فيرجع الى قومه آمناً فاجاب متلطفاً بالاعتذار عن قبول الدعوة

وكانت مملكة اسبانيا في ذلك الحين متسلطة على بعض ارجاء ايطاليا ومن جعلتها مسينا فاراد منكها فيليب الثالث ان يضيف الامير نغور الدين قاصر عامله سيف مسينا ان يكتب الى كران دوك توسكانا بالتمسك منه ان يبعث الامير الى بلاده ضيفاً على حكومتها وفي رواية تشرشل ان الكران دوك طلبه ذات يوم الى حديقة القصر فذهب اليها مع شيخ الاسلام نصر الدين فرأى الدوك يتشي مع رئيس وزراء ملك نابولي فلما اجتمعوا اطلعة الكران دوك على كتاب من الملك فيليب الثالث يدعوه به لزيارته في مدريد وبهذه اذا صار مسيحياً ان يعطى امانة اعظم من امانة لنيان فاجاب الامير شاكراً احسان ملك اسبانيا وعتايت به ولكنه قال افي لم آت الى هذه الديار لعلمة دينية ولا لاطلب حكومة ولكني جئت ملتجئاً ثم قال للكوران دوك انك ظلمتني بجهالتك واغدت علي نعمك ولذلك اصبحت في منة زائدة لفضلك فان شئت ان ابقى هنا فاني مطيع لامرك وان شئت ان ترجعني الى وطني سررت جداً اه . الا ان رواية اخرى تقول ان الكران دوك خيره سيف الذهاب الى مسينا او في البقاء في بيزا فقبل الدعوة ترويحاً للنفس فاعطاه الكران دوك سلسلة من ذهب واعد له مركباً فسافر بعياله والشيخ خاطر الخازن وبني الحاج كيوان في توسكانا ولما بلغ الامير مسينا استقبله واليها الاسباني بالانس والترحاب واقام عنده مكرماً في قصر عظيم اعد له

وبعد حين استأذنه نغور الدين في الذهاب الى بلاده ليطلع على شؤونها فأذن له وسيره ببعض غلمانه فلما اقترب من صور ارسل الشيخ خاطر الخازن ليحيي باخيه يونس الى قرب الدامور واقفى معه على اطلاق البارود في الجو علامة لوجودهم لكي يقترب منهم فيراهم فذهب

الشيخ خاطر واجتمع في دير بسيم برجل من جماعة اخيه ابي نادر واستخبره عن حال البلاد وسأله عن والي صفة فاجابه انه الامير يونس كأنه لم يعلم انه الامير علي او اخطأ الناقل في الرواية وانه استتاب عليها الشيخ ابا نادر ومن ثم ذهب ابو خاطر الى دير القمر واخبر الامير يونس فركب ومعه كثيرون من عطاء الشوف الى الدامور واعطوا العلامة فاقترب مركب الامير من البر وشرع الناس بذهيوت اليد للسلام على نحر الدين والتمسوا منه النزول الى البر فابي الربان ذلك كأنه كان معظوراً عليه ان يسمح به ولما قضى الامير من الاجتماع وطره سافر فمر على مالطة فرحب به واليها واهلها ترحاباً عظيماً وحيوه باطلاق المدافع ثم عاد الى بلده في ايطاليا
جرجي بني

عمران دمشق

تمهيد

التأليف في هذه الديار ضرب من شاق الأعمال لا يُعانيه الا من يُدانيه لضعف مادة العلم وكساد بضاعة الفضيلة وتباين المتارب والمذاهب وشدة الضغط والتعسف بحيث يضطر في الغالب من يجرأ عليه الى التقية يستعملها فيما يكتب على حين أنه لا تقية في العلم ولا خشية من الصريح بالحق الا في اقطار يُحظر فيها كل شيء خلا التمجيد والتدليس لي صديق من حملة العلم اوعز الي ان أنشي رسالة أُلِّم فيها بما نَقَلت على دمشق النتائج من كثر وقُل وعلم وجهل فامتثلت امره وانا أحاذر ان تطبق عليّ بالقول والنعل جملة فاه بها احد كتاب الفرنسيين وقد ألف كتاباً وهو في الخامسة والعشرين من عمره "إن هذا السن يستسهل العقل فيه حل المشكلات وأخذ الاشياء بظواهرها ويحل الخيال منه محل النقد والتنقيب ويعتقد المرء في الامور بغير قيد وهو سر لو انصف اهله ما كتبوا ولا ألفوا"
واذ شرعت في العمل تيسر لي رغم المصاعب من مخطوط الأسفار ومطبوعها ما لم اتوقع الحصول عليه فاستأنست ببعض واقتنست من آخر وبما طالعت من المخطوط جانب من تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ والضرورة اللامع لاهل القرن التاسع للسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ والكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة للنجم الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ ومختصر المدارس في تواريخ المدارس العلمي والاصل للشمسي المتوفى سنة ٩٢٧ ومحاسن الشام للبدري وحوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٧٦ لابن بديرو وكتاب ثمار المقاصد في ذكر